الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥)

وأثره في الفكر المصرى الحديث

د . أحمد زكريا الشِّلق

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ ـ ١٨٣٥)
وأثره في الفكر المصرى الحديث

-١-

في أواخر السبعينات من القرن العشرين أصدر المؤرخ الأمريكي «بيتر جران» دراسة مهمة عن الفكر المصري الحديث بين عامي ١٧٦٠ - ١٨٤٠[١] ، متخذاً من «تطور » مصر الاقتصادى نحو الرأسمالية ، وما نتج عنه أو صاحبه من تطور ثقافي ، ومن شخصية ومؤلفات وأفكار الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥) محوراً لذلك ، ليقدم أطروحة جديدة مفادها أن مصر خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم تكن فى حالة انحطاط ثقافى ، أو أنها كانت تعانى من فراغ ثقافى وعلمى كبيرين إلى أن جاءت حملة الغزو الفرنسى عام ١٧٩٨ لتملأ هذا الفراغ بالعلم الحديث . وانتقد الكاتب أولئك الذين يتخذون من عام ١٧٩٨ بداية لتحديث مصر ، معتبراً أنهم لم يدرسوا ليكتشفوا أن مصر كانت قبل الغزو الفرنسى تتميز بثقافة حية كانت كفيلة بأن تجعلها ، إذا سارت فى نموها الطبيعي ، قادرة على إنجاز عملية التحديث بنفسها ، وأضاف أنه يكفى القراءة الواعية لكتابات حسن العطار ، التى كانت تصب فى اتجاه التحديث ، وكتابات عدد من أترابه ومعاصريه من المصريين ، وهو مالم يحفل به أحد على نحو جاد ، لكى تُثبت هذه الحقيقة قبل مناقشة الاعتقاد بأن بونابرت وجيشه وعلماء حملته كانوا أداة التحول الثقافى وبداية لتحديث الفكر المصرى .

وقد انتهي جران إلى نتيجة عكسية مؤداها أن حملة الغزو الفرنسي قد أضرت بالطبقة الوسطي المصرية ، و«بالثقافة العقلانية» التي كانت تفرزها ، وخلص إلى ضرورة مراجعة هذه المقولة الشائعة عن الفرنسيين ودورهم في تحديث مصر ، وذلك أن النظرة العلمية الفاحصة توحي بشيء آخر تماماً ، وجعل يثبت خطأ الاعتقاد لدي الغالبية العظمى بأن تحديث مصر جاء من الخارج وليس من الداخل[٢] . وتأكيدا

لأطروحته راح يرسم صورة لمصر ، قبل الغزو الفرنسي ، استناداً إلى دراسة واعية ومتأنية للمجتمع المصري ، اقتصاده وثقافته ، خلال هذه الفترة ، ليخلص في النهاية إلى أن مصر كانت تشهد ما اعتبره «صحوة ثقافية» ذاتية ، بعيداً عن «نهضة الغرب» التي لا تعني بالضرورة «نفي الآخر» .

وفي العقد الأخير من القرن العشرين بدأت أطروحة جران تجد صداها لدى عدد من المؤرخين والكتاب الذين رأوا ضرورة مراجعة أفكار المدرسة الاستشراقية التي تجعل من الغرب «ومركزيته» محورا لنهضة البلاد التي غزاها ، فأشار «رءوف عباس» إلى ضرورة مراجعة ذلك وعدم التسليم به في ضوء الدراسات الحديثة ، وذلك أن المجتمعات يمكن أن تتطور وفق سياق تاريخي مختلف عن النهج الغربي ، وأنه يجب كشف فساد استنتاجات المستشرقين في دراساتهم عن العصر العثماني ، وعن مدي تطور مصر خلاله ، ومن ثم يجب دراسة الثقافة الوطنية ، العربية الإسلامية ، التي توفر مقومات هذا التطور ، الذي أعاق مجراه قدوم الغرب . فلا شك أن التحولات التي شهدتها مصر في عصر محمد علي لم تنشأ من فراغ ، خاصة وأنه لم يعتمد على رأس المال الأجنبي ، وإنما على موارد مصر وحدها ، وتساءل : فمن أين استطاع الاقتصاد المصري في مطلع القرن التاسع عشر أن يوفر كل تلك الموارد إذا كان اقتصاداً راكداً ، وكيف تجاوب المجتمع مع إصلاحاته إذا كان مجتمعاً يفتقد القابلية للتطور ، وكيف استطاع الفتية الذين تعلموا في ظل النظام التقليدي أن يتجاوبوا مع التعليم الحديث ويتابعوا الدراسة في المعاهد الأوربية إذا كانوا نتاج تعليم متخلف عاجز؟ . إن ما حدث على أيدي محمد علي ، الذي كان شرقيا عثمانياً ، لم ينشأ من فراغ وإنما اعتمد على الأساس الراسخ للتجربة التاريخية المصرية[٣] .

وفي نفس هذا الاتجاه الجديد الذي يدعو إلى إعادة اكتشاف وتقييم أوضاع مصر خلال الحكم العثماني ، قبل الغزو الفرنسي ، بحثا عن عناصر ومكونات التطور

والتحديث ، جاءت دراسة «نللي حنا» عن تجار القاهرة في العصر العثماني (١٩٩٧)[٤] ، والتي انتهت إلى أن مصر شهدت منذ أوائل القرن السابع عشر تطوراً تجارياً لعله استمر حتى أواسط القرن الثامن عشر ، وأيدت رأي «جران» في ما ذهب إليه من أن الاقتصاد المصري كان يتطور بإمكاناته الذاتية قبل مرحلة التغلغل الأوروبي[٥] ، وخلصت إلى أن مظاهر التغير التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر ترجع بدايتها إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الأمر الذي يتطلب إعادة النظر في الرأي التقليدي القائل بأن عام ١٨٠٠ هو بداية تحديث مصر ، وأكدت على أن ما حدث كان تطوراً وليس انقلابا . وقد ذكرت أن التحديث الذي عرفته مصر في القرن التاسع عشر يعزي ـ عادة ـ إلى التأثيرات الغربية ، التي صاغت ملامحه إلى حد ما ، وأن بعض هذه الملامح مثلت «انقطاعا» عن الماضي ، ورأت دراستها أن عملية التحديث التي وقعت عام ١٨٠٠ اختلفت عن تلك التي حدثت بعد ذلك التاريخ في القرن التاسع عشر ، وأنه يمكن دراسة ذلك «الانقطاع» في حد ذاته ، وليس باعتباره «بداية» لا أساس لها في الماضي ، ومن ثم يجب دراسة تجربة محمد علي وتقييم التغييرات التي حدثت في عهده على ضوء ما حدث قبله ، فالتطور لا يعني بالضرورة رسم خط واضح مرن لعملية التحول ، ومن هنا لا نستطيع أن نقلل من شأن التغييرات التي حدثت في أواخر القرن الثامن عشر[٦] .

وإذا كان لنا ألا نبالغ في الحديث عن ارتباط التطور الثقافي بالتطور الاقتصادي ، على نحو صارم أو حتمي ، فالمسلم به أن التطور التجاري لم يسر في خط صاعد دائماً ، وإنما أصابه نوع من الركود والاضمحلال منذ أواخر القرن السابع عشر واستمر ذلك خلال العقود الأولى من القرن الثامن عشر ، وهو ما أثر بشكل واضح على الحركة العلمية والثقافية فأدركها الجمود وفقدت روح الابتكار حتى أواسط القرن الثامن عشر ، وبغض النظر عن أسباب ذلك ، وعن مدى مسئولية الحكم العثماني عنه ، فالثابت أن الحياة العلمية والثقافية في الأزهر والمعاهد الأخرى كانت مستمرة وحافلة بأعداد كبيرة من العلماء والطلاب ، بسبب استمرار

نظام الأوقاف المحبوسة على معاهد العلم والعلماء[٧] . وهو ما وفر القاعدة والأساس ، كما وفر المناخ لظهور عدد من الشيوخ والعلماء الذين سعوا إلى التجديد خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، لإحداث نهضة فكرية ، لم يقطعها سوى الغزو الفرنسي وتداعياته .

ولسنا هنا نقارع الفكرة الاستشراقية بشأن التحديث الذي أتى به الغرب ، بفكرة تنطوي على نظرة مضادة وطنية شوفينية تؤكد في المقابل على أن مصر كانت مقبلة على نهضة ذاتية تمتلك أسبابها ومقوماتها ، وأن الوضع العام لها في ظل الحكم العثماني ـ المملوكي كان يدفع بها في هذا الاتجاه . . بل لابد من دراسة مكونات الحركة الفكرية والعلمية ولفهم مدى قابليتها للتحديث والتطور قبل حملة الغزو الفرنسي ، ثم دراسة تأثير الحملة ومدى استجابة الفكر المصري لها ولمعطيات الحضارة التي جاءت منها وبها ، ثم دور تجربة محمد علي في النهضة وتحديث الدولة والمجتمع ، فلكل مرحلة من المراحل الثلاث نشاطها وإسهاماتها ، كما أنها تركت أثارها في المرحلة التالية لها بغير شك ، فلا شيء يتم بمعزل عن الآخر ، والشيء يؤدي إلى الآخر ، ففكرة الاستمرارية قائمة ، ولكن بأي معيار وبأي قيمة؟ ذلك هو السؤال ، وإذا كنا نسلم بأن مصر كانت مقبلة ، قبل الغزو الفرنسي ، على تطور ذاتي ونهضة حديثة ، فالأمر يحتاج مزيداً من الدراسات للقرن الثامن عشر وتوكيد ذلك بنظرة أشمل وأوسع وأعمق قبل الاعتقاد فى صدق هذا الرأى .

- ٢ -

وسوف نحاول هنا أن نلقي مزيداً من الضوء على الحياة الفكرية في مصر خلال القرن الثامن عشر . . يدفعنا إلى ذلك ملاحظة مؤادها أن التقدم السريع في الاستجابة للتحديث الذي شهدته مصر بعد احتكاكها بالغرب من خلال استقدام الخبراء والفنيين وإرسال البعوث العلمية وحركة الترجمة ، الذي تم على نطاق واسع خلال القرن التاسع عشر ، خاصة من جانب جيل الطلاب والمبعوثين الذين تعلموا

الفرنسية بسهولة وترجموا عنها الكثير من العلوم والفنون والآداب ، وساهموا في وضع أسس بناء اقتصادي جديد لمصر ، كل ذلك حريٌّ بأن يجعلنا نعيد النظر ونراجع تلك المزاعم التي أحاطت بالفترة التاريخية السابقة على الاحتكاك بالغرب ، ومن بينها بطبيعة الحال الزعم القائل بتدهور الأزهر ونظام التعليم فيه ، وتدهور الحياة الفكرية عامة في مصر ، فلا يمكن أن ينشأ التطور الجديد من فراغ تام وظلام دامس . .

لقد شهدت العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر إنتاجاً وفيراً في الكتب والمصنفات ، واتساعاً للموضوعات والمجالات التي تناولتها ، وربما يفوق هذا الإنتاج مثيله في فترة محمد علي ، لكن كانت نظرة المؤرخين إلى هذه الكتابات وما تحمله عناوينها نظرة تنطوي على قدر كبير من التسرع والخفة ، فجعلوا يسقطونها من اهتماماتهم ، باعتبارها مجرد حواش أو تقارير ، أو حتى شروح وتفاسير ، تتم بالترديد والاشتقاق ، دون النفاذ إلى مضمونها ليكتشفوا أنها تحمل في طياتها إرهاصات ومعالم فكر جديد ، فبالرغم من أن كتَّاب هذه المؤلفات والمصنفات يقرون أن غرضهم تفسير بعض «المتون» أو إضافة بعض «الحواشي» ، إلا أنهم من الناحية العلمية كانوا يعقبون ذلك بإضافات غير متوقعة في مسائل ثقافية دنيوية ، خلال عرض هذه الموضوعات الدينية .

ويلاحظ أن علماء الأزهر قد تأثروا بحركة الازدهار التجاري والاقتصادي التي شهدتها القاهرة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وازدادت ثروات العلماء نتيجة لذلك ، ونشطوا لرعاية صحوة الطرق الصوفية التي ازداد نشاطها بشكل كبير ، ولم تكن مجرد ظاهرة اجتماعية اقتصادية ، وإنما كانت ظاهرة دينية ثقافية ، انتظم في طرقها الناس من مختلف الطبقات ، وكانت أبرز هذه الطرق الطريقة البكرية الخلوتية والسادات الوفائية ، فضلاً عن بعض الطرق «الشعبية» كالطريقة البيومية وغيرها . . وقد نتج عن ازدياد نشاطها جميعاً ، وزاد من أهميته ظهور عدد من

القيادات البارزة والكتابات المهمة ، فاشتهرت أسماء الشيوخ مصطفى البكري ومحمد أبو الأنوار السادات وإسماعيل الخشاب ومحمد الصبان وعبد الله الشرقاوي وغيرهم . . وبرزت كتابات مهمة في مجال «علم الحديث» باعتباره يمثل التعبير الشرعي والقانوني للبلاد ، خاصة في أواخر القرن الثامن عشر ، لتأكيد قيم التجارة وتحقيق الأرباح العادلة من النشاط التجاري ، وهو ما كان العلماء يبرزونه في كتاباتهم . . وقد شغل علماء الطريقتين البكرية والوفائية بدراسة «الحديث» أكثر من أي موضوع آخر ، وكان من الطبيعي أن تعتمد هذه الدراسة على علوم أخرى مساعدة كعلوم اللغة والأدب والتاريخ ونحوها ، الأمر الذي أدى إلى ظهور الاهتمام بالمعرفة «المتخصصة» في هذه الميادين ، وبدا وكأن علماء الدين قد ارتادوا مجالات ثقافية جديدة داخل الطرق الصوفية تمثلت في «المجالس» التي كانوا يعقدونها بشكل منتظم يلتقي فيها العلماء والأدباء .

وقد كتب العلماء عدداً كبيراً من الأعمال في فروع اللغة ، فحققت البلاغة نهضة مثيرة للإعجاب ، وتزايد الاهتمام بالأدب وإحياؤه ليعاون علم الحديث ، فبعثت مقامات الحريري درساً وشرحاً ، وقاد ذلك إلى دراسة مصادرها وشغف الأدباء بتقليدها كشكل متميز للنثر الأدبي في نهاية القرن الثامن عشر ، حتى لقد تطورت المقامة نحو شكل من أشكال الرواية ، وفي ظل ازدهار الصوفية أيضا نشأت الحاجة إلى دراسة البلاغة ، تلبية لحاجات «الإنشاد والذكر» وبرزت كتابات الشيخ السجاعي ومحمد الأمير ومحمد الصبان وأحمد الدمنهوري ومحمد الكفراوي وعبدالله الشبراوي وحسن العطار . وقد شهدت نفس الفترة ازدهارا في تأليف المعاجم ، حتى أنه كانت هناك ست نسخ بين كل ثمان نسخ من المعاجم ترجع إلي القرن الثامن عشر ، وارتبط ذلك بعمل علماء الحديث أيضاً . ويبرز معجم «تاج العروس» للزبيدي كأحد أهم منجزات هذه الفترة ، التي شهدت أيضاً نشاطاً في الكتابة في النحو ، وكان فرسانها الزبيدي والصبان ، وعالم القرن السابع عشر «الخفاجي» . وكان العمل الأساسي في هذا المجال كتبه «ابن هشام» الذي كتب

خالد الأزهري حاشيته على متنه ، واستمر محمد الأمير يمثل مدرسة ابن هشام في أواخر القرن التاسع عشر ليسلم القيادة إلى حسن العطار [٨] .

وقد شهدت الكتابة التاريخية تطوراً جديراً بالاهتمام ، فلم يعد التاريخ يعني بتاريخ الأسرات الحاكمة فقط ، فقد ظهر اهتمام كبير بتاريخ الطبقات الوسطى وتاريخ طوائف الحرف ، وصارت الحوليات التي كان يكتبها عسكريون عثمانيون (مدرسة الأجناد) تعكس انهيار النظام القديم ولم تعد لها فائدة كبيرة . وقد برز عبد الرحمن الجبرتي كأهم مؤرخي هذه الفترة ، ورغم أن كتاباته التزمت بإطار منهج الحوليات ، إلا أنها في مضمونها كانت مختلفة تماماً ، حيث تشكل جزءاً من «الصحوة» الكلاسيكية الجديدة ، فقد احتوت كتابات الجبرتي على تراث تاريخي جديد اهتم فيه بمقاصد الكتابة التاريخية وبالجدوى الخلقية والثقافية لدراسته ، ولفاعليته في الصراع ، فضلاً عن النظرة النقدية للأحداث والوقائع والشخصيات ، وجاء عمله الأساسي «عجائب الآثار» تعبيراً عن تلاحم الاتجاهات السابقة مع الاتجاهات الجديدة[٩] .

لقد كان التطور الأكثر أهمية والذي يتصل بتحديث الفكر ، ليس هذا السيل المتدفق من الكتابات في هذه الفروع التي أشرنا إليها ، أو في تلك الكوكبة من العلماء والمشايخ والكتاب ، وإنما كان يتمثل في الإحساس بميلاد ما يمكن اعتباره وعياً نقدياً ، لم يلبث أن نما وقاد الصحوة الكلاسيكية الجديدة ، والذي كان يصب في اتجاه ثقافة حديثة في مصر جديرة بالاهتمام والدراسة . ويرتبط ذلك بالازدهار التجاري الذي شهدته البلاد في القرن الثامن عشر ، الذي كان عاملاً مؤثرًا أطلق حركة التجديد التي اتسمت بالحيوية في الحياة الدينية ، والتي أثمرت بدورها ثقافة دنيوية وليدة ، وإن كانت هذه الصحوة ما لبثت أن تعرضت لموجة من الضعف في العقد الأخير من نفس القرن نتيجة للآثار المترتبة على احتدام الصراعات الداخلية وما نتج عنها من انهيار الرعاية التي كانت تقدم لميادين العلم والثقافة ، فضلاً عن

ضعف النظام الحرفي بعد تدفق سيل السلع الأجنبية ، وتعرض القاهرة لتضخم مالي بسبب تركز غير طبيعي للثروة دون وجود إمكانات لتوظيفها ، وبات واضحا أن الحياة الثقافية أصبحت تقتصر على الحد الأدنى اللازم لدعم الحياة الدينية . . .حتى جاء الغزو الفرنسي الذي أضر بالطبقات الوسطى وبالثقافة العقلانية التي كانت تفرزها[١٠] .

وفيما يتعلق بالعلوم العقلية كالرياضيات والطب والكيمياء والفلك ، فقد كانت موجودة وإن لم تحظ بنفس المكانة والاهتمام اللذين كانت تحظى بهما العلوم النقلية ، وكان من الجلي أنها لم تكن تدرس في الجوامع الكبرى على نطاق واسع ، وإنما كانت تدرس غالباً في بيوت المتخصصين فيها ، لكن من الثابت أنها كانت موجودة تدريساً وتأليفاً ، وقد برز فيها علماء متخصصون حازوا شهرة كبيرة ، ولعل أبرزهم الشيخ حسن الجبرتي - والد المؤرخ الكبير - ورضوان أفندي الفلكي والشيوخ أحمد الدمنهوري وأحمد السجاعي ومصطفي الخياط ، والفلكي الكبير عثمان أورداني الذي استشهد به الطهطاوي ليدلل على عدم اضمحلال العلوم العقلية في مصر في القرن الثامن عشر ، فضلاً عن أن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي كان من المشتغلين بالعلوم الفلكية والرياضية والطبية ولكن فاقت شهرته كمؤرخ شهرته في هذه العلوم .

وكما أشرنا ، لعب الازدهار الاقتصادي الذي شهدته مصر منذ العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر دوراً في إحداث هذه الصحوة وتهيئة المناخ العام ، فلعبت بعض البيوت التجارية الكبرى مثل بيت الشرايبي وبيت المحروقي وغيرهما ، دوراً في هذا المجال حيث كان بعض هذه البيوت يقتني المكتبات الضخمة ، كما كانت تعقد مجالس للعلم اشتهرت في حينها . هذا بالإضافة إلى أن كبار العلماء أنفسهم قد حققوا ثروات كبيرة ، سواء نتيجة توليهم وظائف الإشراف على الأوقاف ، أو لما كانوا يتلقونه من رواتب «عثمانية» أو من اشتغال بعضهم بأمور الالتزام والتجارة ، وكل هذا

وذاك وفر للكثيرين منهم حياة اجتماعية على جانب كبير من اليسر الذي أتاح لهم التفرغ للدارسة والتأليف[١١] .

ويلاحظ أن علماء هذا العصر كانوا بشكل عام من «الموسوعيين» الذين درسوا وكتبوا في أكثر من علم وفن وموضوع ، ولا غرو فقد كان هذا العصر هو عصر العلماء الموسوعيين الذين لم تشهد مصر مثيلاً لهم خلال القرون الثلاثة السابقة على القرن الثامن عشر ، وتلك مرحلة من مراحل التطور العلمي والفكري تشكل تمهيداً وقاعدة لمرحلة التخصص التي تليها ، بل إن هناك من يرى أن دائرة المعارف الفرنسية التي لا يضارعها إلا القليل في عصرنا والتي كانت من نتاج شخصيات عظيمة في فرنسا ، ربما لا تضارع «تاج العروس»![١٢] .

وتكشف كتابات مرتضى الزبيدي (١٧٣٢-١٧٩٠) الذي كان عالما باللغة والحديث والأنساب عن وعي نقدي واضح ، كما تبرز أصول النظرة العلمية التي تمت في القرن التاسع عشر ، وعبرت عنها رموزه الثقافية من أمثال حسن العطار ورفاعة الطهطاوي ، لقد كان الزبيدي شخصية فريدة في عصره ، كما كان أبرز كتابه ، وإن لم يتوفر أحد على دراسته دراسة علمية تجدر به . وقد تنوعت مجالات كتاباته ، كما كثر طلابه وكثرت رحلاته واتصالاته ، فدرس بالهند والحجاز على ما هو معروف ، وقد صور الجبرتي لحظة وصوله إلى مصر عام ١٧٥٤ باعتبارها من اللحظات العظيمة في الحياة الفكرية في القرن الثامن عشر . وإلى جانب دوره التعليمي ، اشتهر بأبحاثه ودراساته في الحديث ، حيث تحول من روايته إلى تحليله ليكشف عن سعة اطلاع وعن طريقة متميزة في التعليم أثارت الإعجاب ، حتى لقد كانت النساء تحضرن جلساته العلمية التي كان يلقيها في منزل أحد الأعيان ، وقد استطاع إبداعه أن ينتج عدداً من المصنفات كان أهمها «تاج العروس» الذي يكشف عن عقلية تمارس وظيفتها في مجال واسع من العلاقات العلمية ، ويقف على قدم وساق مع دوائر المعارف والموسوعات الشهيرة في أوروبا[١٣] .

- ٣ -

إن إعادة تقييم الإنتاج العلمي والثقافي لمصر في القرن الثامن عشر سوف يثبت إلى حد كبير حدود ومجال ما يمكن اعتباره «صحوة ثقافية» ظهرت ملامحها خلال العقود الأخيرة من نفس القرن ، وسوف يثبت أيضاً أن أبرز تلاميذ الزبيدي وهو حسن العطار (١٧٦٦-١٨٣٥) كان من أعلام فترة التحول والانتقال إلى نهضة القرن التاسع عشر ، وأنه كان أبرز صناعها ، ورغم أنه كان كعلماء زمانه يكتب الحواشي والشروح والتقارير ، وبأسلوب قد يصعب فهمه أحياناً ، إلا أن مصنفاته وكتاباته ، سواء كانت مدرسية أو أصيلة ، تمثل مصادر لها قيمتها وأهميتها الكبيرة ، وإن كان قد كتبها بأسلوب وطريقة عصره المألوفة ، فالشكل الذي كان يكتب به مجرد أسلوب ، ذلك أن المضمون كان هو الأهم ، فقد أثبتت حواشيه ومقالاته في علم الكلام كيف أنه كان سابقاً لعصره ، لا يتفق تفكيره مع الفكر السائد في زمنه ، كما كشفت أعماله عن عقل يتمتع بدرجة عالية من التنظيم ، وكان علم الكلام هو مجال المثقفين ذوي العقلية الناقدة ، في عصر تفردت فيه النظرة الدينية على أمور العلم جميعاً ، وفي إطار هذا العلم طرح العطار قضايا تتصل بالثقافة العامة وحرية الفكر وبالمشاكل السياسية . .[١٤] .

وبالرغم مما سبق فإن العطار لم يشتهر كثيراً ، وربما عرف ببعض شعره الذي لم يكن له أهمية خاصة كما أنه لم يجمع في ديوان خاص ، أو ربما عرف أيضًا بكونه كتب تقريراً أو تقريرين حول الإصلاح ، لم يحظيا باهتمام حقيقي ، بل إن تلميذه رفاعة الطهطاوي قد حظي باهتمام واسع لأجيال عديدة لأسباب مختلفة ، بينما كان حظ الأستاذ من الاهتمام قليلاً أو منعدماً ، كما لم يعرف في الخارج رغم صلاته العديدة مع عدد من الأوربيين ، في الوقت الذي كتب وصنف فيه أكثر من خمسين كتاباً ، فضلا عن أنه شغل موقعاً هاماً في المجتمع المصري ، ولا زالت كتبه الدراسية معروفه لطلاب الأزهر ، حيث كانت تدرس إلى وقت قريب ، ومع ذلك

لم توقظ لدى شيوخ الأزهر وعلمائه بشكل عام الإحساس بأهمية وخطورة الأفكار التي عبر عنها العطار في الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

ولد حسن العطار بالقاهرة نحو عام ١٧٦٦ أي في بداية الثلث الأخير للقرن الثامن عشر ، وقبل مجيء حملة الغزو الفرنسي لمصر بنحو ثلاثين عاماً ، في ظل ظروف سياسية قلقة كانت سلطة الدولة العثمانية على مصر تتدهور ، بعد اختلال التوازن الذي أقامته ، لصالح بكوات المماليك الذين استطاعوا الاستئثار بالسلطة دون الوالي العثماني ، لتقع مصر فريسة تصارع عدد منهم ، وكان أحدهم ، هو علي بك الكبير ، قد استطاع الاستقلال بحكم مصر قبل مولد العطار ببضع سنين ، وفي ظل هذا الوضع تفتحت عين العطار ، الذي شاهد وهو في نحو العشرين من عمره إرسال الدولة العثمانية حملة عسكرية إلى مصر لاسترداد السلطة فيها ، كما شاهد فرار أمراء المماليك إلى الصعيد وعلى رأسهم مراد بك وإبراهيم بك على أثر ذلك ، ثم عودتهم إلى القاهرة ليحتدم الصراع بينهم على السلطة بعد أن تلاشت سلطة الوالي العثماني من جديد .

وتفيد المصادر أن حسن العطار الذي كان ينتمي لأسرة من أصول مغربية كان عليه أن يعمل في تجارة والده محمد كتن الذي كان يملك محلاً للعطارة ـ ومن هنا حمل اللقب ـ ومع ذلك استطاع الطفل أن يعتمد على نفسه في حفظ القرآن الكريم وإعداد نفسه للدراسة في الأزهر التي كان يتوق إليها ، واستطاع أن يقنع والده ، الذي كان على قدر من الفهم والعلم ، بأن يسمح له بالاستمرار في الدراسة . وعندما التحق بالأزهر استطاع أن يستكمل دراسة المنهج الابتدائي بسرعة فائقة ، وكان بوسعه أن يحصل على وظيفة صغيرة بالجامع كأحد رجال الدين ، لكنه آثر أن يواصل دراسته للتعليم الأعلى ، وفي مطلع التسعينيات من القرن الثامن عشر تصادق مع شخصيتين كان لهما تأثير عليه وهما إسماعيل الخشاب وعبد الرحمن الجبرتي ، ويبدو أنه انضم إلى طريقة السادات الوفائية الصوفية ، التي حمل منها كنيته «أبو

السعادات» خلال هذه المرحلة من حياته ، والتي كانت مصر تشهد فيها ازدهار نشاط الطرق الصوفية .

ولما كان من المعتاد في هذه الفترة كذلك أن يبحث العلماء الشبان عن رعاية يسبغها عليهم أحد الشخصيات العامة أو من ذوي السلطان ، فقد سعى الشيخان الخشاب والعطار لنيل رعاية الأمير المملوكي محمد بك الألفي ، الذي كان مهتماً بالعلوم الفلكية ، وبجمع آلاتها ، فضلاً عن اهتمامه بالصوفية ، وقد كتب العطار قصيدة امتدح فيها بيته الجديد . . وعندما غزا الفرنسيون مصر واستقرت أوضاعهم نسبيا ، سعى الشيخان ومعهما الجبرتي لنيل الرعاية التي يفتقدونها ، فتبادل معهم العطار الدروس ، وكتب لهم مختصراً في تاريخ مصر ، أما الجبرتي فقد صار عضوا في الديوان الذي أقاموه ، غير أن ثلاثتهم ما لبثوا أن أدركوا أن نشاطهم مع الفرنسيين لم يكن مريحاً أو مثمراً ، بل صار موضع حرج ، لم يستطع العطار تجاوزه فاضطر إلى مغادرة مصر في رحلة طويلة سيأتي ذكرها(١٥) .

ومن المهم أن نشير إلى أن تعليم العطار في الأزهر قد تركز في علوم اللغة وفقهها ، وربما كان لذلك صلة بكتاباته المبكرة ، وقد تتلمذ على أستاذيه في هذا التخصص وهما الشيخ محمد الصبان والشيخ محمد الأمير ، وكانا من الشخصيات الرائدة في حركة الإصلاح ، فأحدهما كان رمزا لحركة «علم الحديث» في مصر والآخر كان يمثل أرفع مستوى للثقافة المغربية في القاهرة آنذاك ، وقد تتلمذ العطار أيضاً علي الشيخ الزبيدي ومؤلفاته التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً . . . ويلاحظ أنه شرع كذلك في دراسة العلوم العقلية ، حيث بدأ بقراءة أمهات الكتب في المنطق علي يد أستاذه الصبان وبعد وفاته انتقل إلى الشيخ محمد الدسوقي الذي كان من علماء المنطق المعروفين . . .ويلاحظ كذلك أن العطار رغم ثقافته آنئذ كانت تمثل ثقافة الأزهر واتجاهاته العلمية والفكرية ، إلا أنه كان يرى ببعد نظره وسعة أفقه وشدة تطلعاته ، أنه ينبغي أن يتجاوز هذه الدائرة إلى دائرة أوسع تلائم العصر ، ومن هنا رأى

أن يتجاوز شيوخه وأساتذته بالقراءة الواسعة في الكتب التي رأى فيها من المعرفة وثراء الفكر عالماً أرحب وأوسع ، كما لم يعد يكتفي بالكتب العربية ، بل اتجه إلى قراءة الكتب المترجمة في أوائل عصر النهضة في القرن التاسع عشر ، فجمع بها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب ، وقد ذكر عنه رفاعة الطهطاوي أنه كان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولع شديد بسائر المعارف البشرية(١٦) .

ولما كان العطار آية في حدة النظر وشدة الذكاء ، كما يصفه علي مبارك ، فضلاً عن أنه كان كلفاً بالمعرفة محباً لتحصيل العلم ، فقد رأى ما كانت عليه البلاد من تخلف في ميدان العلوم التطبيقية وفي مجال الصناعات والفنون ، وشهد التدهور الاجتماعي الذي أصاب البلاد والذي تمثل في انتشار الأمراض والخرافات ومعاناة مصر من الأوبئة والطواعين ، حتى أن طاعوناً كبيراً أصاب البلاد عام ١٧٩١ أودى بحياة شيخه الزبيدي ، وقد دعاه ذلك فيما بعد إلى أن ينادي بضرورة الأخذ بدراسة العلوم الطبية والهندسية ، إلى جانب الرسوخ في العلوم الشرعية والأصول الفقهية ، التي رأى أنها لا تتعارض مع هذه العلوم . . .وقد ذكر العطار عن قراءاته أنه كان يطلع على الكتب التي جلبت من بلاد الفرنج وترجمت إلى اللغة التركية واللغة العربية ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة . . . وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل(١٧) .

وفي أواخر التسعينيات من القرن الثامن عشر ظهرت براعة العطار في دراسة النحو ، عندما انتقد ما كتبه المتأخرون الذين كانوا استمراراً للسلف ، وعلى الأخص خالد الأزهري ، الذي رأى فيه العطار جامعاً للمادة وناقداً غير نزيه وأنه خلط بين مصادره خلطاً واضحاً ينم عن عدم وعيه بالاختلافات الفكرية ، ولم تكن «حاشية العطار على شرح الأزهرية» مجرد نقد للأزهري ، بل كانت نقداً كذلك لأستاذه محمد الأمير ، حيث قام العطار بنقد الكتب التي كان أستاذه قد امتدحها . . . وعموماً فإن نظرة العطار الناقدة في كتاباته المبكرة كانت أقرب إلى الصحوة ، حيث

بدأ يعيد تقييم ما كتبه الجيل السابق وينتقد إصراره على استخدام لغة الماضي دون سواها [١٨] .

وعندما غزا الفرنسيون مصر هرب العطار إلى الصعيد هو وبعض العلماء خوفاً من بطشهم ، واستقر به المقام فى أسيوط لفترة تقرب من العامين ، وهى فترة أطول مما قضاها رفاقه ، وكان الجبرتى الذى فر إلى قريته بالدلتا قد سبقه إلى العودة للقاهرة ، لذا دارت بينهما المراسلات ، التى نشر الجبرتى بعضها فى أحد كتبه ، لتكشف عن أن صديقه العطار كان يمر بأزمة نفسية قاسية ويعانى من العزلة عن أحداث القاهرة ، التى عاد إليها بعد معاناة أخرى من متاعب الحجر الصحى بسبب الطاعون وبسبب أخطار الطريق الذى كان معرضاً لغارات البدو ، ومن إحدى رسائله التى أرسلها للجبرتى عن الطاعون فى الصعيد نفهم أنها كانت مؤرخة فى مايو عام ١٨٠١ أى فى الفترة الأخيرة من وجود الفرنسيين فى مصر[١٩] .

المهم أنه عندما عاد إلى القاهرة واستأنف التدريس بالأزهر ، وجد أموراً كثيرة قد تغيرت وأن الكثير من معايير السلوك الاجتماعى قد اختلفت ، وأنه صار بوسع الكثيرين من ذوى المكانة المرموقة أن يتصلوا بالفرنسيين ، فلم ير بأساً من أن يتصل بهم وأن يعقد معهم صلات تسمح له باستكشاف ما عندهم من علوم وفنون حديثة ، وبالفعل اطلع على ما لديهم من كتب ومؤلفات ورأى آلاتهم وتجاربهم العلمية ، مما أكد لديه فكرة أهمية العلوم الطبيعية وضرورتها لمصر والمصريين ، خاصة بعد أن اطلع على كتب فى العلوم الرياضية والآلات الفلكية والهندسية ، وقد ذكر عنه علي مبارك أنه «اتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ، ويفيدهم فى اللغة العربية ويقول إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة ـ الفرنسية ـ من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة»[٢٠] .

ورغم قصر الفترة التي اختلط فيها العطار بالفرنسيين ، إلا أنها كانت ذات تأثير هام في حياته نظراً لما اطلع عليه عندهم من منجزات الحضارة الحديثة ، وتفيد

المصادر أنه اختلط بهم وأفرط في ذلك وأنه كان منبهراً بذلك مأخوذاً به ، وعندما تنبه إلى ما سوف يجره عليه ذلك من مآخذ ، باعتبارهم أعداء البلاد والملة ، قرر ألا يذهب بعيداً في علاقاته الاجتماعية معهم ، وكتب في سيرته الذاتية ، المتناثرة ، عن مسلكه الذي فسره بموجة من التحرر النفسي التي مر بها بعد فترة الصعيد ، وقد كتب مقامة شهيرة في الفرنسيين وعلاقته بهم اعترف فيها بانجذابه إليهم ، ووصفهم فيها بأنهم قوم مسالمون ، لا يشددون الوطأة إلا على من حاربهم ، كما عبر عن إعجابه لحبهم للفلسفة «وحرصهم على اقتناء كتبها وإعمال الفكرة فيها والروية» ، ومن الملاحظ أن نظرته إليهم كانت نظرة إنسانية ، وأنه انساق وراء مشاعره الشخصية بعد أن «حثوه على الملازمة عندهم» ولكنه رفض حتى لا يتعرض لسهام الملامة والعداوة والاحتقار من بني قومه[٢١] .

غير أن اضطراب الأوضاع في مصر وانتشار الفوضى خلال الفترة التي أعقبت رحيل الفرنسيين ، بعد فشل مشروعهم الاستعماري جعل الشيخ حسن العطار يؤثر الرحيل عن مصر في رحلة علمية إلى كل من استانبول ودمشق ، وقد روى لطلابه في دمشق أن الحواشي التي جمعها على شرح «الأزهرية» كان قد جمعها وقت تدريسه لذلك الكتاب في الأزهر ، وأنه عندما شرع في نقلها من المسودة «دهم مصر ما دهمها من حادثة الفرنسيين الكفرة فخرجت من مصر فاراً إلى البلاد الرومية ، مستصحبا للمودة وغيرها من بعض كتبي»[٢٢] .

ولم يتضح لنا ما الذي يعنيه بهذه الحادثة ، فقد كان الفرنسيون قد رحلوا عن مصر نهائيا في أكتوبر ١٨٠١ كما كان العطار قد رحل إلى استانبول عام ١٨٠٢ . وقد فسر بيتر جران «هروب» العطار من مصر بأنه عندما انتهى الاحتلال الفرنسي وجد نفسه وقد تعرض للشبهة مما أجبره على الفرار ، وأضاف إلى ذلك عدم اتزان شخصيته كعامل آخر من عوامل رحيله ، وأنه ربما لم يجد مصدراً ثابتاً للرعاية في المستقبل[٢٣] ، بالرغم من أن المسألة أبسط من ذلك بكثير وتتصل باضطراب

الأوضاع وقلقه وعدم قدرته على مواجهة الأوضاع الجديدة ، ومن هنا كان إيثاره الرحيل لطلب العلم . ففى تركيا سيجد الأمان المفقود ، كما سيجد شخصيات مرموقة تعاونه وتدعمه ، ويجد مناخاً علمياً ومؤسسات ومكتبات عامة تتيح له فرصة دراسة العلوم العقلية التي كانت ضعيفة في الأزهر آنذاك .

ولذلك يمكن التأكيد على أنه كان يبحث عن حرية البحث والدراسة خاصة في العلوم العقلية التي قضى بالفعل نحو ثمان سنوات يدرسها في تركيا ، أعقبها بخمس سنوات أخري في دمشق التي رحل إليها برفقة صديق سوري كان معه في استانبول . . . وفي دمشق وجد مكانا ملائما لدراساته وتحقيق آماله وتطلعاته كما وجد نفسه حرًا في دراسة الشعر الأندلسي الذي أحبه ، كما درس كتابات ابن عربي .

وكان رحيله إلى استانبول مباشرة عام ١٨٠٢ ، وهناك توطدت صلاته برجال الدين الرسميين في سنواته الأولى ، عندما كان يدرس ويكتب فى أصول الدين ، ثم لم يلبث أن اشتغل بدراسة علم الهندسة التقليدية ووضع نتائج دراساته فيها وفي علم الفلك إحدى مؤلفاته ، وبعد فترة غادر استانبول إلى الإسكندرونة حيث أقام فيها بين عامي ١٨٠٦ - ١٨٠٧ ، وهناك أنجز كتاباً في النحو ، وعندما زار ساحل البحر الأسود وكذلك أزمير شرع يبدي اهتماماً جدياً بدراسة الطب ، التي كان يهفو إليها في صدر شبابه ولكن لم يتيسر له حينذاك ، ولذلك آثر العودة إلى استانبول عام ١٨٠٨ ليستمر في دراسة الطب حتى رحيله إلى دمشق عام ١٨١٠ ، وقد أخذ في دراسة مستوى متقدم من الطب على أيدي الأطباء الأوربيين وخاصة علم التشريح ، كما أشاد بنشاط هؤلاء الأطباء في مستشفيات استانبول ، وكان خلال دراسته هذه يقيم في منزل كبير الأطباء «الحكيمباشي» وقد تمكن من تأليف عمله الرئيسي في الطب ، الذي وضعه عام ١٨١٤ وتحدث فيه عن أهمية غرفة التشريح «التشريحخانة» وخلص إلى أن هذا علم لا يمكن متابعته بجدية إلا بالنظر والمشاهدة وأن ما يعرفه الإنسان بالأدلة المنطقية لا يكفي .

وفي تركيا درس الفقه ، وصادق مجموعة من المصلحين منهم الملا أحمد قاسم أفندي ومحمد عطا الله ، وربما يكون قد اقتنع بمعارضتهم التنازل عن السلطة للأجانب ومعارضتهم الخروج على التقاليد الوطنية في الإصلاح والتي أرساها السلطان سليم الثالث ، وقد تبنى العطار نفس هذا الاتجاه الإصلاحي عندما عاد إلى مصر وعمل في خدمة محمد على ونظامه . وعموماً ، غادر استانبول إلى دمشق مع أحد خلصائه السوريين ليستزيد من الحرية في طلب الدراسة والعلم ، وهناك أقام في إحدى المدارس «الحنفية» وألف كتابا في «أدب البحث» أو الجدل ، وجعل يدرِّس الطب والتشريح ، وكان من بين طلابه شيخ أصبح عميداً لأطباء سوريا ، كما كان يمنح الإجازات في الطب لبعض تلاميذه ، ورغم أنه كان يقوم بالتدريس في حدود الإطار الشامل لطب ابن سينا ، إلا أنه لم يكن يلتزم بآرائه وإنما كان يعلم ما استفاده من الطب الحديث(٢٤) .

* * *

عاد حسن العطار إلي القاهرة عام ١٨١٥ وقد زادته رحلاته علما ودراية وخبرة ليستأنف التدريس بالأزهر من جديد ليحرز شهرة فائقة ، حتى أن الشيوخ الآخرين من زملائه كانوا يجلسون إلى حلقته ليستمعوا إلى محاضراته التي كانت تبهر سامعيه ، خاصة محاضراته في «تفسير البيضاوي» التي كان يقدمها بطريقة جديدة ، فكان يبدأ برواية النص ثم يحلله ، أي من الرواية إلى الدراية ، وهي طريقة لم تكن مألوفة حينذاك ، وفي أواخر العشرينيات من القرن التاسع عشر انتقل إلى طريقة جديدة للتدريس لخلصائه من تلاميذه وأصدقائه ، حيث جعل يلقي عليهم دروساً أكثر أهمية في منزله ، بعد أن ضاق به الأزهريون ذرعاً . . .وكانت الدروس الجديدة ذات طابع عقلي اختص به الصفوة التي تمتلك الموهبة والرغبة في المشاركة في الحياة الثقافية الجديدة التي أوجدها نظام محمد علي ، كما كان يختص من الصفوة طلاباً يضيف إلى التدريس لهم مواد أخرى كالتاريخ والجغرافية والطب وغيرها ،

مؤمنا برؤية خاصة بشأن وحدة الحضارة وارتباط عناصرها بأسس علمية رحبة .

وقد استطاع العطار من خلال نشاطه العام أن يحرز شهرة كبيرة حتى برز كعالم من هؤلاء الذين كانوا في خدمة النظام الجديد وساعدوا على تكوين وتشكيل مؤسساته وتوجهاته الثقافية ، كالمدارس الجديدة والبعثات وحركة الترجمة ، وفرق الجيش التي أشرف الفنيون والمستشارون الأوربيون على تدريبها ، وكان النظام الجديد في حاجة إلى متحدثين باسمه ، يدافعون عن إجراءاته وعن شرعيتها ، وكان العطار أحد أركانهم ، وخاصة أن المناخ العام كان مواتيا لما يحب . وقد صارت اللغة العربية ضرورية لتسيير أمور الدولة بعد أن تم التخلي عن التركية العثمانية كلغة للإدارة وشئون الحكم ، وصارت الصحافة والطباعة من أهم مراكز الإنتاج الثقافي والأدبي ، وقد جذبت كوكبة من الكتاب الموهوبين في اللغة والأدب ، والذين كان العطار رائدًا لهم ، وكان من أبرز تلاميذه رفاعة الطهطاوي الذي لازمه منذ عودته إلى الأزهر وحتى رحل إلى باريس ، وكذلك الشيخ محمد عياد طنطاوي الذي رحل إلى روسيا وأشاد المستشرقون الروس بجهوده وكتاباته[٢٥] .

لقد بلغ العطار مكانة في ظل النظام الجديد جعلته قادراً من خلال علاقاته به علي تقديم طلابه إلى رجال الطبقة الحاكمة ، وترشيحهم للسفر والمناصب(رفاعة الطهطاوي خير مثال على ذلك) فضلاً عن تعيين الكثيرين منهم محررين وكتاباً في الصحافة . وقد كتب العطار كتابا في «الإنشاء» اشتهر باسمه وكان يستهدف به تدريب الصفوة البيرقراطية الجديدة على فن التحرير وكتابة الرسائل الديوانية والإدارية ، وقد أراد بهذا الكتاب ، الذي قصد به في البداية رجال مدرسة الجهادية ، أن يساهم عملياً في خدمة الإدارة الحديثة ، والمعروف أنه في هذا الكتاب مدح محمد علي لقدرته على تصحيح الأخطاء ، ولكونه كان شجاعاً يمتلك جيشاً قادراً ، فوصفه بأنه «مدبر الممالك ومؤمن المسالك منور الحوالك ، زينة الأسرة والأرائك ، قامع البغاة ومبيد الطغاة»[٢٦] .

ويلاحظ أن العطار حتى أواسط العشرينيات لم يكن على صلة مباشرة بمحمد علي ، وقد كان صديقاً لإحدى الشخصيات التي تحتل مكانة مرموقة في النظام وهي شخصية عبد الرحمن سامي باشا الذي كان قائداً عسكرياً ، وصار سكرتيراً خاصاً لإبراهيم باشا بن محمد علي ، ثم تولى رئاسة صحيفة الوقائع المصرية ، فرئاسة مجلس المشورة عام ١٨٣١ ، وقد جمعت بينه وبين العطار رؤية فكرية مشتركة نتيجة اهتمامهما بالعلم والحكمة وبالتقدم الذي أحرزه محمد علي ، وكان ثمرة صداقة العطار له أن امتدح عبد الرحمن باشا العطار وقدمه إلى محمد علي ، الذي عينه بعد ذلك في أهم وظيفتين تولاهما وهما تولى مسئولية تحرير «الوقائع» ثم مشيخة الأزهر . ومن الواضح أن العطار كان على علاقة جيدة بإبراهيم باشا ، وقيل أنه عمل رائدًا له لفترة قصيرة ، كما أنه كتب قصيدة فى مدحه عندما عاد ظافرًا من حروب الشام ، وكان العطار بحكم الظروف والملابسات ، يضطر إلى نظم الشعر في المدح ، كمدحه لمحمد علي وإبراهيم باشا ، وإن كان يعترف بأنه لم يكتب شعراً صادقاً إلا في النسيب ، وأن غيره من الشعر لم يكن يخطر إلا قسراً «وإن أتيت بشيء منه فإني معترف بأني جئت شيئاً إمرا»[٢٧] .

وكتب الجبرتي عن تأثر حسن العطار بوفاة صديقه إسماعيل الخشاب عام ١٨١٥ فذكر أنه ترك نظم الشعر «إلا بقدر الضرورة ونفاق أهل العصر . . . واشتغل بما هو خير من ذلك وأبقى ثواباً فيماً هنالك من تقرير العلوم وتحقيقها والتأليفات المتنوعة في الفنون المختلفة وتنميقها ، وهو الآن على ما هو عليه من السعي في خدمة العلم وإقراء الكتب الصعبة ، وله بذلك شهرة عند الطلاب»[٢٨] .

لقد هيأت شهرة الشيخ حسن العطار في العلم والتأليف والتدريس ، وكذلك علاقاته ومكانته ، المجال أمامه لكي يتولى مشيخة الأزهر ، التي تولاها بعد وفاة الشيخ الدمهوجي في مارس ١٨٣١ ليظل بها حتى وفاته في فبراير ١٨٣٥ . ويبدو أن المكانة التي بلغها داخل الجامع الكبير كانت تثير حسد زملائه ، الذين كانوا

ينفسون عليه كفاءته وعلاقاته خارج الأزهر ، وكان على رأس منافسيه الشيخ الضرير حسن القويسني ، الذي كان مرشحاً للمنصب قبل العطار ، وكان يحسده لتفوقه في العلوم العقلية على وجه الخصوص ، ولذلك كان يتعمد ملاحقة العطار بإثارة العقبات والمشكلات أمامه ، حتى لقد اضطر العطار إلى طلب إعفائه من المشيخة ولم يهدأ بال الشيخ القويسني إلا بعد وفاة العطار وتولى المشيخة بعده عام ١٨٣٥ ، حتى لقد أعلن أن أسرة العطار لا حق لها في ممتلكاته الشخصية التي تركها لابنه «أسد» الذي تركه قاصراً عن أم «جارية» بل لقد هدد القويسني ببيع الأم ، وقد جرت عملية نهب لمكتبة العطار من بيته في أعقاب وفاته حتى لقد أصدر محمد علي قراراً بمنع الشيوخ من دخول المنزل بعد أن كان قد فقد منه الكثير .

ومن المعروف أن العطار خلال سني حياته الأخيرة عانى معاناة شديدة بين أوساط الأزهريين وداخل إدارة الأزهر ، وقد نفس عن مشاعره في قطعة نثرية كتبها قبل وفاته بوقت قصير (على هامش مخطوط في التاريخ كان يخص رفاعة الطهطاوي) ذكر فيها «إنني حين وليت مسجد الأزهر في آخر عمري نسيت كل شئ حصلته من العلوم وأفنيت فيه عمري ، وضعف بصري ، وحال اجتماعي بالناس بيني وبين ما يعود علي نفعي في ديني ودنياي ، ولا أرى إلا عدواً في ثياب صديق . . .اللهم سلمني من أذاهم وحُل بيني وبينهم»[٢٩] .

وبالرغم من أن العطار ظل في مشيخة الأزهر نحو سنوات أربع(١٨٣١ - ١٨٣٥) إلا أنه تعرض للنقد على اعتبار أنه لم يتناول الأزهر بالإصلاح والمعالجة ، مما كان هو نفسه يشكو منه سواء من نقص في برامجه وكتبه أو الموضوعات التي تدرس فيه والاتجاهات التي تسوده ، وقد انتقده أحد علماء الأزهر المحدثين ، وهو الشيخ عبد المتعال الصعيدي ، الذي ذكر أن العطار أهمل الأزهر «مكتفياً بصوت خافت أرسله في مواضيع يصعب الحصول عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع ، وكان عليه أن يجهر بذلك الصوت بين جنبات الأزهر لينبه أهله من غفلتهم ويوقظهم من رقدتهم»[٣٠] .

ويبدو أن شخصية العطار كانت من النوع غير القادر على خوض المعارك ، فلم يكن شخصية «نضالية» إن جاز القول ، بل لقد وصف بضعف الروح وفتور الهمة وبالاضطراب في شخصيته أحياناً ، وقراءة سيرته الشخصية قد تعطي ذلك الانطباع ، لكن من الواضح أنه جارى اتجاه محمد علي في شأن الأزهر وإغفاله إصلاحه ، فقد آثر أن يتركه على حاله وعلى نظامه القديم مخافة أن يثير غضب العلماء والشيوخ ، فقد كان محمد علي يرى أن الوقت لم يكن مناسباً بعد لإصلاح الأزهر كما أن نفوس رجاله لم تكن مهيأة لذلك ، وربما رأى العطار أن يساير هذه السياسة وأن يتجاهل ما كان ينادي به من قبل ذلك ، ولعله رأى أن محمد علي يتجاوز بإصلاحاته العامة الدعوة إلى إصلاح الأزهر الذي لم ير بأساً من إبقائه على حاله ، مادامت مصر قد دخلت عصر نهضة جديدة أعم وأشمل .

ويمكن القول أن المدارس العالية الفنية التي أنشئت في مصر في هذه المرحلة ، كالهندسة والطب والصيدلة والألسن ، كانت تمثل استجابة حقيقية لما كان ينادي به حسن العطار الذي كان ينادي بضرورة التغيير ، وكانت الكتب التي ترجمت بالمئات في شتى العلوم والفنون والآداب الصدى المحقق لأمنيات العطار التي عبر عنها لتلميذه الطهطاوي ، والذي أنجز الكثير منها ، ولاشك أن الطهطاوي قرأ لأستاذه ما كتبه في حاشيته على شرح جمع الجوامع أن «من سمت به همته إلى الاطلاع علي غرائب المؤلفات ، وعجائب المصنفات . . وانكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة في رياض الفهوم»[٣١] .

واستكمالاً لترجمة حياته فإن المصادر لا تشير إلى والدة حسن العطار ولم تعرف شيئاً عن علاقته بها في طفولته وشبابه ، كما لم تتوفر معلومات عن زواجه الأول ، باستثناء أن زوجته الأولى كانت تركية وأنها توفيت قبل وقت طويل من زواجه للمرة الثانية من إحدى الجواري عندما كان في ذروة نجاحه وشهرته ، ولذا لم يكن ثمة توافق بينه وبينها ، والملفت للنظر أن موقف حسن العطار من النساء لم

يكن علي نفس موقفه العام ، من حيث تحرره وعقلانيته . . فقد عرف عنه أنه كان في بداية شبابه يرفض إمامة النساء ، وكتب عن عدم جواز ذلك ، وكانت نظرته إلى النساء باعتبارهن متاعاً جنسياً ، وكان يستخرج من الأحاديث النبوية ما يدعم رأيه في النساء باعتبارهن لا يصلحن لولاية شئ ، وناقصات في العقل والدين[٣٢] .

- ٤ -

لقد عاصر العطار مرحلة تحول مهمة وخطيرة في حياة مصر والمصريين ، ومثلت كتاباته ونشاطاته العلمية جزءاً من هذا التحول وعاملا من عوامله ، ذلك التحول الذي بدت إرهاصاته في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر ، في شكل صحوة في العلوم والدراسات الكلاسيكية ، وفي ثقافتها التقليدية ، التي كانت توشك أن تنتقل إلى أعتاب نهضة حديثة ، تفرضها طبيعة التطور ومعطياته ، وإن قطعتها حملة الغزو الفرنسي ، لتطلع مصر قسراً على نمط من الحضارة الأوربية الحديثة بشكل مفاجئ وفي ركاب حملة عسكرية ، نجحت مصر في التصدي لها وإفساد مشروعها الاستعماري ، ليتولى أمرها والٍ عثماني طموح بدأ يأخذ بأسباب النهضة الحديثة ، بعد أن أمسك بزمام القوة والثروة جميعاً في قبضته . .

لقد شهد العطار ذلك ، وساهم بكتاباته فى الفقه واللغة بطريقة حديثة في دفع عجلة الصحوة الكلاسيكية إلى الأمام ، ومع فترة الانقطاع خلال الوجود الفرنسي ، انقطع هو الآخر فى معظمها عن الحياة العلمية والثقافية في القاهرة ليقبع في صعيد مصر خائفاً شبه محاصر ، وعندما عاد إلى القاهرة راح يستطلع ويستكشف ما عند الغزاة الفرنسيين من بضاعة النهضة الأوربية الحديثة ، بفضول العالم ورغبته في المعرفة ، فتعامل معهم وتقرب منهم لكنه ما لبث أن تراجع عن ذلك ، ليبدأ رحلة علم ومعرفة جديدة خارج الوطن هذه المرة ، مبتعداً عن الفوضى والصراع الذي أعقب رحيل الفرنسيين من مصر ، فذهب إلى تركيا ، ربما ليكون قريباً من الحضارة الأوربية ، وليظل في رحلته هذه نحو ثلاثة عشر عاماً ، كان محمد على خلالها يهدم

أسس النظام القديم ويضع أسس نظام جديد ، ينهض بأوضاع مصر في ظل سلطة مركزية قوية .

ولا غرو أن تفتح رحلة العطار الطويلة أمامه آفاق إنتاج علمي وثقافي جديد ، بعد أن استأنف ، على نحو أو آخر ، احتكاكه بالأوربيين العاملين في خدمة الدولة العثمانية ، ثم انخراطه في حياة علمية مختلفة في استانبول تتصل بالاتجاهات الجديدة في الغرب ، خاصة في مجال العلوم العقلية ، كما أثارته دراسة الطب وما وصل إليه ، فتعلم منه وكتب فيه وفي غيره ، وعاد إلى مصر في نفس الفترة ، تقريبا ، التي كان محمد علي يفكر ويخطط لوضع أسس بناء الدولة الحديثة في مصر ، قوامها جيش عصري وتعليم مدني وثقافة وإدارة حديثة ، متعاملاً مع أوروبا ومنفتحا عليها ، لذلك لم يكن غريباً أن يعجب العطار بذلك وينخرط في مشروعه ، لينتقل بثقافة القرن الثامن عشر ، بما فيها من بذور نهضة ذاتية ، إلى عصر نهضة وإصلاح جديد ، قيض له أن يساهم فيه بشكل واضح ، وليكون همزة وصل بين مرحلتين من مراحل التطور لمصر الحديثة ونهضتها .

وإذا كان لنا أن نتساءل عن جوهر الإسهامات الحقيقية والجادة التي قام بها الأستاذ الأكبر لرفاعة الطهطاوي وجيله من مفكرى النهضة المصرية الحديثة ، فسوف يبرز لنا أن العطار كان من دعاة الاجتهاد وارتبط ذلك باهتمامه بالعلوم العقلية ، منذ تفتح وعيه وصار له إنتاج فكري ، ثم ازداد وضوحاً مع دراسته في فترة وجوده فى استانبول ، خاصة عندما درس الطب والعلوم والمنطق وأدب البحث على نطاق واسع ، وظهر أثر ذلك فيما كتبه وألفه في أصول الدين ، فاتسمت كتاباته بنظرة ولغة جديدة ، وبدا هذا واضحا عندما عاد إلى مصر عام ١٨١٥ وطفق يدرس كتاب «الطوالع للبيضاوي» وما كتبه تلميذه «الإيجي» في علم الكلام ، فكان واضحا أن العطار يقدم فكرا جديدا يحفل بالتحليل والمنطق أكثر من اهتمامه بحشد المعلومات وتراكمها ، فضلا عن أنه عمل على تحديد المصطلحات الرئيسية في

مذهبه ، الذي يعتبر الاجتهاد فرضا على المؤمن . . .كما ظهرت تحليلات العطار في حاشيته على كتاب جمع الجوامع في أصول الفقه ، وكانت اجتهادات العطار تنطوي علي نظرية نقدية لتراث القرن الثامن عشر وما قبله ، وكان ذلك في حد ذاته يمثل جرأة غير معهودة في زمنه(٣٣) .

كما سيبرز لنا أيضا أن كتابات العطار تقع في قلب التراث العقلاني لمصر في القرن التاسع عشر ، فقد شارك في الصحوة التي شهدها علم المنطق خلال فترة الإصلاح التي شهدها القرن التاسع عشر ، والمعروف أنه كتب ثلاثة أعمال وعددا من المقالات في المنطق . وبالرغم من النقد الذي وجه إلى كتاباته في هذا المجال ، إلا أنه عبر عن اقتناعه بأن المنطق ليس علما «دينيا» كما أنه ليس من الفلسفة . . ورغم أن العطار كان يعالج تراث «علم الكلام» وقضاياه استنادا إلى العقل ، فإنه كان يفعل ذلك داخل حدود الشريعة . . . وعموما فإن حاشية العطار على شرح «الخبيصي» جعلت له صيتا ذائعا في مصر وخارجها ، كما أنها صارت جزءا من منهج التعليم العالي ، شأنها شأن حاشيته على شرح «الأزهرية» في النحو(٣٤) .

وكان العطار من المهتمين «بأدب البحث» أو علم الجدل . حيث كان يستخدمه في المسائل الدينية ، وخلال فترة وجوده في سوريا تحول إلى توظيفه في الأمور الدنيوية ، وقد أنجز عملا في أدب البحث بعد عودته إلى مصر ، بدا من خلاله وكأنه قد خطا خطوة كبيرة على طريق التقدم نحو الثقافة الدنيوية . . . وكان يؤكد على أن هذا التخصص يخدم فروعا كثيرة من العلم ، وأنه لا يوجد حقل من حقول العلم يخلو من صراع الآراء واختلافها ، وكثيرا ما كان يبدي إعجابه بالمنهجية في علوم الغرب ، ويثني على التخصص العلمي(٣٥) .

وقد أبدى العطار اهتماما واضحا بتنظيم أساليب تدريس النحو وتطويرها ، وكان يؤكد على فهمه باعتباره علما عقلانيا ، وبدا هذا واضحا في أعماله في هذا المجال ،

حتى كان لكتاباته تأثيرها في الأجيال التالية له ، كما أنه بعد عودته إلى مصر عام ١٨١٥ هجر الأساليب العتيقة للتدريس والكتابة في النحو والتي كانت تميز كتابات القرن الثامن عشر ، والتي مارسها هو نفسه في مطلع شبابه ، وكان كتابه «مجموعة في علم التصريف» من أوائل مطبوعات مطبعة بولاق ، فقد صدر عام ١٨٢٥ متضمنا مختارات لعدد من الكتابات الكلاسيكية في النحو بعد أن عالجها بطريقة جديدة وعصرية ، مما جعله من طليعة كتاب النحو في عصره .

كذلك كتب العطار عملا مهما في التاريخ اتبع فيه منهج ابن خلدون الذي كان معجبا به ، ويبدو أن هذا العمل كتب بإيحاء من رجال الدولة العثمانية وعنوانه «رسالة في تحقيق الخلافة الإسلامية ومناقب الخلافة العثمانية» ، وقد استطاع فيه أن يناقش القضايا التي عرضها استنادا إلى الجدل العقلاني بصورة أكثر من التبجيل التقليدي النابع من العواطف الدينية ، وبلغة جديدة تخففت من السجع المألوف ، وبطريقة معالجة استندت إلى المنطق والتحليل لفكرته المحورية . . . وكان اهتمام العطار بالجغرافية الكلاسيكية والرحلات كبيرا ، فكان يقرأ متونها مع الطهطاوي ويسجل ملاحظاته على هوامش الكتب أثناء القراءة ، ومطالعة هذه الملاحظات يكشف عن منهج استدلال عقلي في نظرته إلى القضايا التي يتناولها ، وتتضح نفس النظرة في مقدمة العطار لطبعة بولاق لكتاب «تخليص الإبريز» . . الذي كان الطهطاوي قد كتبه بتوجيه من أستاذه الذي ذكر في تقريظه للكتاب أنه يدفع كل إنسان إلى الرحيل من بلد لآخر بحثا عن المعرفة . . [٣٦] .

وكان من أهم المجالات التي ساهم فيها العطار بنصيب وافر دراسته للطب ، الذي وضع فيه كتابه الأساسي في سوريا عام ١٨١٤ المسمي «راحة الأبدان على نزهة الأذهان» وكان متنا لشرح كتبه «الإنطاكي» ، واعتبر هذا الكتاب من أهم إنجازات الكلاسيكية الجديدة ، نظر فيه العطار إلى مصادره نظرة نقدية ، خاصة ما كتبه ابن سينا وابن النفيس والبغدادي وغيرهم ، مما يكشف أنه كان على دراية

واسعة بالطب الإسلامي ، فضلا عن تأكيده على الأهمية الكبيرة للتشريح التجريبي من أجل دقة التشخيص والمعرفة الدقيقة لطبيعة الأعضاء ووظائفها[٣٧] .

وفوق ما سبق وضع العطار أهم عمل في الفقه وأصول الدين في عصر الإصلاح وهو حاشية على متن تقليدي هو «شرح جلال الدين المحلي على جمع الجوامع لعبد الوهاب السبكي» وقد وضعه في جزئين بين عامي ١٨٢٨ - ١٨٣٠ ، وتعتبر هذه الحاشية من أهم ما كتب في عصر الإصلاح ، حيث تكشف عن مقدرة عالية علي التفكير النقدي المنظم ، فضلا عن الفكر المتحرر ، وقد كتبها بعد ما لاحظ إعراض شيوخ الأزهر عن كتب المتقدمين ، ولذلك أخذ يلومهم وقد ذكر «أن من تأمل في علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا ، مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية ، لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التي ألفت فيها ، حتى كتب المخالفين في العقائد والفروع ، وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر في كتب غير أهل الإسلام . . . ثم هم ، مع ذلك ، ما أخلوا في تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات . ومن نظر في ذلك وفيما انتهى إليه الحال في زمان وقعنا فيه علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عندنا ، وقد اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها ، حتى كأن العلم فيها . . .» [٣٨] .

والعبارة السابقة خير ما نختم به هذه الدراسة فهى تلخص طريقة تفكير العطار وعمق نظرته ، وقدرته على إثارة الفكر والتأثير فيه ، كما تكشف عن ثقافة عميقة ومقدرة نقدية كبيرة ، وأنه كعالم وفقيه لم يكن فيه تزمت أو جمود أوانغلاق ، وإنما كان واسع الأفق رقيق الذوق فوق كونه أديبا مطبوعا ، ومفكرا ومصلحا مستنيرا . .

* * *

الهوامش

(١) Gran, Peter, Roots of Capitalism, Egypt 1760-1840, University of Texas Press, 1979.

وقد ترجم الكتاب إلي اللغة العربية تحت عنوان «الجذور الإسلامية للرأسمالية في مصر ١٧٦٠-١٨٤٠» ، ترجمة محروس سليمان ومراجعة رءوف عباس ، دار فكر للدراسات والنشر ، القاهرة ١٩٩٢ .

(٢) بيتر جران ، الجذور الإسلامية ، ص ٥-١٣ .

(٣) رءوف عباس ، مقدمته لترجمته لكتاب نللي حنا : تجار القاهرة في العصر العثماني ، سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ١٥-١٧ .

(٤) نللي حنا ، تجار القاهرة في العصر العثماني ، ترجمة رءوف عباس ، والدراسة في أصلها الإنجليزي هي :

Hanna, Nelly, Making Big Money In 1600: The Life and Times of Ismâil Abu Taqiyya Merchant, University of Syracuse press, 1997.

(٥) نللي حنا : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ، وكذلك Gran, Peter, Late 18 th - early 19 th Century Egypt: Merchant Capitalism or Modern Capitalism, L' Egypte au XIXe Siécle, Paris 1982.

(٦) نللى حنا : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ - ٢٦٣ .

(٧) عبد الله عزباوي ، المؤرخون والعلماء في مصر في القرن الثامن عشر ، سلسلة مصر النهضة ، مركز تاريخ مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ ، ص ٢٦٨-٢٧٦ ، ٢٩١ .

(٨) بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ١١٨-١٢٧ .

(٩) نفس المؤلف والكتاب ، ص ١٢٩-١٣٦ .

(١٠) نفس المؤلف والكتاب ، ص ١٣٧-١٤٧ .

(١١) عبد الله عزباوي ، المرجع السابق ، ص ٤٥-٥٠ ، ص ٢٧٠-٢٧٩ .

(١٢) بيتر جران ، الجذور الإسلامية ، ص ١٣ .

(١٣) الزركلي ، الأعلام ، ط(٧) بيروت ١٩٨٦ ، جـ(٧) ، ص ٧٠ ، بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ١٠١-١٠٢ .

(١٤) بيتر جران ، الجذور الإسلامية ، ص ١١-١٣ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ، وجمال الدين الشيال ، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ، النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ٣١ .

(١٦) محمد عبد الغني حسن ، حسن العطار ، سلسلة نوابغ الفكر العربي ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٨ ، ص ٤٢ ، ورفاعة رافع الطهطاوي ، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، طبعة مصورة نشرها المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٢٧٦ .

(١٧) حاشية العطار على جمع الجوامع جـ٢ ، ص ٦٤١ ، عن كتاب محمد عبد الغني حسن ، المرجع السابق ، ص٤٣ .

(١٨) بيتر جران ، الجذور الإسلامية ، ص١٥٦ .
(١٩) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، دار الكتب المصرية ١٩٩٨ ، الجزء الثالث ، ص ٢٦٥-٢٦٦ ، بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .
(٢٠) محمد عبد الغني حسن ، حسن العطار ، ص ٧٤ ، عن خطط علي مبارك جـ٤ ، ص ٣٨ .
(٢١) نص مقامة الأديب الرئيس الشيخ حسن العطار في الفرنسيس بكتاب بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ٣٣١-٣٣٣ .
(٢٢) حاشية العطار علي شرح خالد الأزهرية ، المطبعة الأدبية ، القاهرة ، ١٩٠١ .
(٢٣) بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .
(٢٤) نفس المرجع ، ص ١٨٦-١٨٧ ، ص ١٩٠-١٩٣ .
(٢٥) أغناطيوس كراتشكوفسكي ، حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي ، ترجمة كلثوم عودة ، طـ٢ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٢٦-٢٧ .
(٢٦) محمد عبد الغني حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٨ ، بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .
(٢٧) محمد عبد الغني حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٥٩ ، بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠-٢٢١ .
(٢٨) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، دار الكتب المصرية ١٩٩٨ ، جـ(٤) ، ص٣٧٥ .
(٢٩) بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ٢٢١-٢٢٥ .
(٣٠) عبد المتعال الصعيدي ، تاريخ الإصلاح في الأزهر ، جـ(١) ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٢-٢٤ ، محمد عبد الغني حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٠-٣١ .
(٣١) محمد عبد الغني حسن ، المرجع السابق ، ص ٧٥(عن حاشية العطار على جمع الجوامع) .
(٣٢) بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ٢٢٥ ، ٢٥١ .
(٣٣) المرجع السابق ، ص ٢٤١-٢٤٥ .
(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٥٤-٢٥٨ .
(٣٥) المرجع السابق ، ص ٢٥٨-٢٦٠ .
(٣٦) المرجع السابق ، ص ٢٧٩-٢٨٢ .
(٣٧) المرجع السابق ، ص ٢٩٨-٣٠١ .
(٣٨) حاشية العطار على جمع الجوامع ، المطبعة العلمية بالقاهرة ١٣١٦هـ ، جـ(٢) ، ص ٢٢٥-٢٢٦ .